والرغبة فى الوصول إلى المكان الذى قصدته .

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفرِ اضطرارى ؛ كالسفر الضرورى إلى الحج مرة فى العمر .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ[1] وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التى نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا فى هذه الآية الأنعام التى نستخدمها للتنقّل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها[2] وهى الخَيْل والبِغَال والحمير ؛ ويُذكّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَرْكب ؛

(١) البغال : جمع بغْل . وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد . فالشأن في البغل العقم . وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . [القاموس القويم ١/ ٧٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٨٠٠) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب . وقرأ الآية التى قبلها : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هى مباحة . قلت : الصحيح الذى يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل » .

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البَغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البَغْل ؛ فيمكنه أنْ يشترىَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثةَ ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أىِّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس فى الرزق ، فَمن الذى يقوم بالأعمال التى نُسمِّيها نحن ـ بالخطأ ـ أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس فى الرزق لَمَا حلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ فى عيون مَنْ يُمارسونها ، ذلك أنها تَقيهم شَرَّ السُّؤال .

ولَوْلا أن مَنْ يعمل فى تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلئ بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان فى الكون لوجدتَ فى حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكدُّ عَشْر سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكدّ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة

ما يُتقنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغنَى والتَّرف ستجدهم فى بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةً وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانه أنْ يُنوِّع فى مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصّ التعبيرى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتى من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [النحل]

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيْل ويُربِّيها ويُروِّضها ويجريّها لجمال منظرها .

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التى كانت تحمل عنّا

الأثقال ؛ وتلك المُخْترعات التى هدانا الله إياها ؛ فما بالُنا بالمواصلات فى الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاعٍ غير موجود فى الدنيا ؛ ولذلك يقول فى الآية التالية :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ(١) ۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقَصْد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلِّ مجهود .

ونحن فى لغتنا العاميَّة نسأل جندى المرور « هل هذا الطريق ماشى ؟» رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصِّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجِزك الأسباب تقول « خلِّيها على الله » أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهى الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل فى الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافات وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذى حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الريَّاح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين .

---

(١) الجائر : المائل عن الحق المنحرف عنه ، فلا يصل سالكه إلى ما يريد . [القاموس القويم ١/١٣٧] .

وحـين يكون قَـصْـد السـبـيل عـلى الله ؛ فـالله لا هَوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحـابى أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسـبة له سواء ؛ ولذلك فـهو حين يضع طريقاً فـهو يضعُه مـستقيـماً لا عِوجَ فيه ؛ وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ٦ ﴾ [الفاتحة]

أى : الطريق الذى لا التواءَ فيـه لأىِّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسَرِ طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ۝ ٩ ﴾ [النحل]

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان فى حواره مع الله قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ ۝ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ٨٣ ﴾ [ص]

وردَّ الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ ٤١ ﴾ [الحجر]

والحق أيضاً هو القائل :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ ١٢ ﴾ [الليل]

أى : أنه حـين خلق الإنسـان أوضح له طريق الهـداية ، وكذلك يقـول سبحانه :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(٢) ۝ ١٠ ﴾ [البلد]

---

(١) أغـواه : أضلّه وأوقعـه فى الغى والضـلال . وغـوى : بمعنى خـاب وضل لأنه انهـمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤] .

(٢) النجدان : طريق الخيـر وطريق الشر . والنجد : المرتفع من الأرض . فالمـعنى : ألم نعرفه طريق الخـير والشر بيِّنيـن كبيـان الطريقين العـاليين ، وقـيل : النجدان : الثـديان .[لسان العرب ـ مادة : نجد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذى لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفكِّرين ألاَّ يُرهقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلَّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة البشر إلا أنهم يُغيِّرون من القوانين كل فَتْرة ؛ أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذى قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبِّقوه ؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها سبحانه ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

ولكى يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

بينما السبيل العادلة المستقيمة هى السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهى سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أى : يُطيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصّل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان ممَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصى أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحباً ، ويُثْبت له المحبوبية التى هى مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثْبتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخَلقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول فى آخر الآية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ [النحل]

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[1] كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[2] ﴿١٠﴾ ﴾

وقوله :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠) ﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التى تُقطّر المياه وتُخلّصها من الشوائب لَعلِمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر .

والسماء ـ كما نعلم ـ هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذى يجئ نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .

---

(١) الطير صافات . أى باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : أى صفَّت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) تسيمون : ترعون إبلكم . أسام الدواب : أرسلها للرعى . [القاموس القويم ١/ ٣٣٧] .

ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوّنة من محيطات وبحار تُغطّى ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[3] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ﴾ [النحل]

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أنْ جعل مياه البحار والمحيطات مالحة ؛ فالملْح يحفظ المياه من الفساد .

---

(١) أزجى الشىء : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] . أى : يدفعها ويُسيرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر شديده وهيِّنه . ودقت السماء : أمطرت . [القاموس القويم ٢/٣٢٧] .

(٣) البَرَد : حبّات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذى يُغذِّى الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذى نأكل منه .

وكلمة ﴿ شجر ﴾ تدلُّ على النبات الذى يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة « مشاجرة » والتى تعنى التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع ؛ فيه مغروس بمالك وهو ملْك لمَنْ يغرسه ويُشرف على إنباته ، وفيه ما يخرج من الأرض دون أنْ يزرعه أحد وهو ملْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى ، فتأكل منه دون أنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾ [النحل]

من سَام الدابة التى تَرْعى فى الملْك العام ، وساعة ترعى الدابة فى الملْك العام فهى تترك آثارها من مَسَارب[١] وعلامات . ويُسمُّون الأرضَ التى يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أُنُف»[٢] بمعنى أن أحداً لم يَأتِ إليها أو يَقربها ؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شىء .

---

(١) المسارب : مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات : مواضع آثارها إذا انسابت فى الأرض على بطونها . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٢) يقال : روضة أنف وكاس أنف : لم يُشرب بها قبل ذلك . كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . والأنف . الكلأ الذى لم يُرْع ولم تطأه الماشية . [لسان العرب - مادة أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا يُعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبته ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التى لها أثر فى الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .

والزيتون ـ كما نعلم ـ يحتوى على مواد دُهْنية ؛ والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوّنات الغذاء ؛ فهو القائل :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ[1] الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٦/٤) : « قال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ » .

وحين يرغب الأطباء فى تغذية إنســان أثناء المرض ؛ فهم يُذيبون العناصر التى يحـتاجها للغذاء فى الســوائل التى يُقطّرونها فى أوردته بالحَقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومَنْ يقـومـون بتـغذية البـهـائم يعلمـون أن التـغـذية تتكوّن من نوعين ؛ غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التى تساعـد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذّى ويضمن السِّمْنة والوَفْرة فى اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـــونَ وَالنَّخِـــيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ..(١١)﴾ [النحل]

فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول فى ضَوْء قَوْل الحق سبحانه :

﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ(١) أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذى يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قـد حرثتَ بالحـديد الذى أودعـه الله فى الأرض فاسـتخـرجْتَـه أنت ؛ وبالخشب الـذى أنبته الله ؛ وصنعتَ أنت منهـما المـحراث الذى تحرث به فى الأرض المـخلوقة لله ، والطاقة التى حرثتَ بهـا ممنوحة لك من الله .

---

(١) الزرع : الإنبات . يقال : زرعـه الله . أى : أنبته ونماه حتى يبلغ غايتـه .. [لسان العرب - مادة : زرع] .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هى من عطائه ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١١) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعَد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ [النحل]

أى : على الإنسان أنْ يُعملَ فكره فى مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأنْ يفعَل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتسانَد أفكارنا ؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدى إلى الله لابُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد فى القرآن آيات تنتهى بالتذكُّر[1] والتفكُّر[2] وبالتدبُّر[3] وبالتفقُّه[4] ، وكُلٌّ منها تُؤدى إلى العلم اليقينى ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلمام بها ؛ ولكن النسيان محاها ؛ فكان مِنْ مهمتك أنْ تتذكَّر .

---

(١) ذكر الشيء ذكراً وذُكْراً ، وذكرى ، وتذكاراً : حفظه . وتذكره : استحضره ، وتذكَّره . وتذكر : جرى على لسانه بعد نسيانه . [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر فى الأمر : افتكر . التفكير : إعمال العقل فى مشكلة للتوصل إلى حلها . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : نظر فيه وفكَّر . [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه : صار فقيهاً . وتفقه الأمر : تفهَّمه وتفطَّنه . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

أما كلمة « يتفكرون » فهى أُمّ كل تلك المعانى ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كى تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل ؛ تفكُّر ، فتدبُّر ؛ فتفقُّه ؛ فمعرفة وعلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ[1] لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ ليُؤدّى كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهمته الراحة .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . وقوله (مُسخَّرات) أى : مُسيَّرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص]

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهي تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهي ليست ملْكاً لأحد غير الله ؛ بل هي من نظام الكون الذي لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكَّم أحدٌ في أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَّم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ[1] (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أي : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليُوضِّح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

---

(١) الغشاء : الغطاء . غشَّيت الشيء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] . فالليل يغشى الناس بظلمته ويغطى على ضوء النهار .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

وأىُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة فى هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً[1] ⦗١٠⦘ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ⦗١١⦘ ﴾ [النبأ]

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً من قبل الفجر وهو فى قِمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً فى سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان فى بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضى الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم فى الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التى قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها فى موضعها الصحيح ، وفى وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكّرين ، ليستيقظوا فى الفجر بهمّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [النحل]

نلحظ أنه لم يَأتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكنّا نجد الحق يُقسم بها فهو القائل :

---

(١) يُشبَّه الليل باللباس لأنه ساتر . [القاموس القويم ١٨٨/٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤٦٢/٤) : « أى يغشى الناس ظلامه وسواده . وقال قتادة : (لباساً) أى : سكناً . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ⦗١١⦘ ﴾ [النبأ] أى : جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات » .

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة]

فكلُّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت فى حياتك اليومية حين ينطفىء النور تذهب لترى : ماذا حدث فى صندوق الأكباس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائى . وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة]

وهو القائل :

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلٍّ منها منازلَ ، وهى كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التى تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :